

جريئة إلى «أوهته» ، ونمت الحياكم عندئذ بقايم الزمان وناطق  
النطقاء . وقد سبق أن فصلنا عناصر هذه الحوادث والدعوات  
في « الرسالة » في بحثنا « الدعوة الفاطمية السرية » فلا  
نمود اليها هنا

وكانت خاتمة الحياكم ، كحياته ، خفية مدهشة ؛ فقد أفاض  
من هذا العالم وزهق في ظروف غامضة ما زالت على التاريخ  
سراً عمير الجلاء (١)

\*\*\*

وهنا نحاول ، بمد أن استعرضنا أعمال الحياكم بأمر الله  
وغريب أحكامه وتصرفاته ، أن نبرض إلى أدق وأصعب نقطة في  
دراسة هذه الشخصية المعجبية

ماذا كانت حقيقة هذه الشخصية التي جمعت بين خلال  
وصفات يحمل أكرها طابع العنف والشذوذ والتناقض ؟ وبأى  
عين يجب أن ننظر اليها ، وبأى مقياس نستطيع أن نقدر صفاتها  
وأعمالها ؟ وأي أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها ؟

لدينا في ذلك مادة منوعة : أقوال الرواية الاسلامية الماصرة  
والتأخرة ، وحوادث العصر ، وأعمال الحياكم وتصرفاته ذاتها .  
فأما الرواية الاسلامية ، فلا ترى في أمر الحياكم لغزاً يصعب  
استجلاؤه ؛ ولنلاحظ أولاً أن ما انتهى اليها من أقوال الرواية  
الاسلامية ، إنما هو في الغالب أقوال المؤرخين السنيين ، خصوم  
الشيمية وخصوم الدولة الفاطمية ، وانما لم نلق من تراث الشيمية  
الذي يبدته الحوادث والدول الخصيمة ما يلقى ضياء كافياً على ذلك  
الغفاء الذي يحيط بشخصية الحياكم وأعماله . والحقيقة أن  
الرواية الاسلامية تأخذ بظواهر الحوادث المادية ، وتكتفي بأن  
تقدم اليها الحياكم في تلك الصور المروعة المثيرة التي أشرنا اليها ؛  
وقلما تحاول أن تلمس فيها وراء ذلك شيئاً من البواعث والأسباب  
التي يمكن أن نلج بها بعض نزعات الحياكم وتصرفاته المعجبية .  
وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الاسلامية في وصف الحياكم ؛  
فهي لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير ،  
عنيف الأهواء والنزعات ، كثير الميث والسفك ، شديد التناقض ،  
لا يصدر عن روية أو منطق متزن ، ولا يتحرى غاية أو مثلاً  
معقولة . هذه هي الصورة العامة التي يقدمها اليها المؤرخون

(١) ترك هنا البحث أيضاً إذ سبق أن جالناه في فرصة سابقة

## ٦- الحياكم بأمر الله

ختام البحث

للأستاذ محمد عبد الله عنان

- ١٠ -

إلى ذلك الحين سلخ الحياكم زهاء خمسة عشر عاماً في الحكم ؛  
وكانت فترة تحمل طابع الاضطراب والعنف والمفاجأة بما تحملها  
من غريب الاحكام والتطورات التي أتينا على ذكرها . ولكن  
الحوادث تدخل من ذلك الحين في طور آخر ، ويميل المهد إلى  
نوع من الهدوء ، ويتجه الحياكم وجهة أخرى . كان ذلك الزمن  
المضطرب المهائم مما لا يسكن إلى ركود الحياة العادية ، وكان دائماً  
يؤثر التوغل في عوالم الحياة الروحية . وكانت أعوام مصر  
الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية التي تحجب عنا أغوارها  
ريب وظلمات كثيفة . كانت مصر في هذه الأعوام مهداً خصباً  
لمعبدة من اللعاة الفاسرين الذين هبطوا اليها يبشرون بأديان  
وعقائد جديدة ؛ وكان الحياكم من وراء هذه الدعوات يرعاها  
ويرقب تطوراتها، حتى استحالت في أواخر عهده إلى دعوة

شخصية قد بنيت على تأملك وشعورك لا على حفظك وقراءتك .  
وستصل من هذا الطريق بأفق أوسع وملكوت أعلى  
في الحديث : « الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا » ولعل هذا  
الضرب من التأمل ينبههم في حياتهم ، من غير أن ينتظروا  
أن ينتبهوا بموتهم  
ربما كان هذا ضرباً من التصوف يتفق وروح العصر ، وإن  
شئت فقل إنه نوع من التصوف على أحدث طراز وأبداع غط ،  
يمتد على الحياة لا الموت ، ويدعو إلى النشاط والعمل لا إلى  
الحول والسأم ، ولعل الانسان يجد في الركون إليه بعض أوقاته  
راحة مما رمتنا به المدنية الحاضرة من عناء ، وما أرهقتنا من عناء ،  
ولعلنا نستروح من هذا البرنامج نسيم الراحة فيراجمنا نشاطنا ،  
وتنوب اليها قوتنا ، وتمود اليها نفوسنا  
أحمد أمين

المصلحين ؛ وقد كان الحاكم طاغية ، ولكن مصلحاً على طريقته ؛ وكان يرى بما يصدر من القوانين والأحكام الى تحقيق غايات معينة ، دينية وسياسية واجتماعية ، ربما خفيت على الكافة ، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا ؛ ومن ثم كان الريب في حكمتها والسخط عليها ؛ وكانت القسوة في تطبيقها

فأما معاملة الذميين : أعنى اليهود والنصارى ، وما صدر في شأنها من الأوامر والأحكام المشددة ، فلم تكن بدعة في ذاتها ، ولم تكن حدثاً جديداً في الخلافة الاسلامية ؛ ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة التي جعلت منها نوعاً من الاضطهاد النظم . ولقد كانت الخلافة الاسلامية تأخذ بسياسة التسامح الديني وتطلق لرهاياها الذميين الذين يؤدون الجزية حرية الاعتقاد والشعائر ؛ ولكن الذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دأباً نوعاً من المعاملة الخاصة ؛ ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود التي تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين ، وكان منها قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل ، وحمل السلاح ، واقتناء البيد (١) ؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ في عصور الحامسة الدينية لونا من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال . وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الديني نحو اليهود والنصارى ، وأنهم في ظلها ازدهروا وتبوءوا أرفع مناصب الثقة والنفوذ ، وأن موقف الحاكم نحوهم ، واشتداده في معاملتهم على هذا النحو ، كان انقلاباً في السياسة الفاطمية . وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم ، بأنه نوع من القلوة الديني له بواعثه السياسية ؛ ففي هذه المرحلة التي اشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى ، كان الحاكم يبدى كثيراً من التعصب والقلوة سواء من الناحية الدينية العامة أو الناحية المذهبية الخاصة ؛ ولكن هذه الشدة استحالَت في أواخر عصره الى نوع من اللين والرفق بالنصارى واليهود ؛ ذلك لأن هذا الذهن المضطرب يستحيل عندئذ الى ذهن فلسفي حر التفكير ، ينظر الى الأديان كلها نظرة واحدة ؛ وإن كانت السياسة العليا تحتم عليه أن يؤيد دين الدولة ومذهبها الرسمي ؛ وقد كان الحاكم ولد أم نصرانية كما قدمنا ، أفلا نستطيع أن نفلس أثر هذه الأرومة أيضاً في هذا

السلعون عن الحاكم ؛ وهي صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية ؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البغض والسفك ، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لا غاية ، وكان القتل في نظره خطة سياسية ؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات ، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية ، وإنما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل المادية لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور ؛ وكان متناقضاً في كثير من تصرفاته ، ولكن تناقض الذهن الذي يحاول مختلف الوسائل والتجارب لتحقيق غايات معينة . ومع ذلك فإنه لم يفت بمض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم لم تكن بتلك البساطة التي تصور بها ، فقد وصفه الذهبي بأنه كان « خبيثاً ، ماكرآ ، رديء الاعتقاد » (١) ، وهي صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم الذي يفكر دون تدبر ويصم دون غاية والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدمشة ، وكان لفرآ عسير الفهم ؛ وإذا كان قد اشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه ، فإنه مازال أيضاً في بعض نواحيه لفرآ على عصرنا ، وإن كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحي ، وتعليل كثير من أعماله وأحكامه . ويصفه العلامة الألباني ميلر بأنه « من أعجب وأعجز الشخصيات التي عرفها التاريخ » ؛ ويقول : « إن من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون من مختلف الأساطير والقصص يخرج بأنهم لم يفهموه ، وانهم اعتبروه مجنوناً فقط ؛ وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة ، ولكن توجد قمة شواهد واضحة على أن هذا الأمير الذي هو أعجب من أنجيبت أسرته ، كان أشدهم أمانة للأساطير من حوله ، وأن حجاباً كثيراً قد أسبغ على صورته فلا نستطيع أن نظفر منها إلا بلحات » (٢)

والآن ماذا نستطيع أن نقول في قوانين الحاكم وتصرفاته ؟ وكيف نظر اليها ؟ هل كانت في مجموعها فورات مجنون ونزعات مجبول كما تصورها معظم الروايات الاسلامية ؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والاعتراق ، ولكن من التعامل والظلم أن نصفها بالسخط المطبق ، وأن نمت صاحبها بالجنون . ولقد ظلم التاريخ الحاكم كما ظلم كثيراً من الطغاة

(١) راجع النجوم الزاهرة ( ٤ من ١٧٨ )

(٢) Müller, Der Islam I. p 628

(١) راجع هذه الأحكام في فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٥١

وما تزال بعض الحكومات تحمى من حريات الشعب في التجوال بالليل في ظروف معينة حرصاً على الأخلاق والأمن العام ومطاردة المرأة والحجر عليها؟ لا ريب أن الحاكم كان يذهب في ذلك إلى ذروة الغلو والاغتراق، ولكن المرأة من أشد عوامل الفتنة والغواية، ولا سيما في عصور الفساد والانحلال، وقد رأى الحاكم، في الحجر على المرأة، والمباعدة بينها وبين الرجل في حياة المدينة، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة. أما الاغتراق في تطبيق التجربة، فهو بلا ريب أثر من اغتراق هذا الذهن الهائم في كل ما يتقصد ويتنكر؛ وإذا كنا نستطيع أن نملل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة، فمن الصعب علينا أن نملل ذلك الاغتراق في تطبيقها إلى حدود من القسوة الذرية. بيد أنه ليس من الإنصاف أن تنكر على الاجراء كل حكمة، فمن المحقق أنه كان ذا أثر كبير في درء الفساد الشامل وتنقية حياة المدينة؛ وإنا لنشهد في عصرنا في بعض الأمم العظيمة فكرة مماثلة في الحد من حريات المرأة الاجتماعية وردّها إلى حظيرة الأسرة، مع فرق في العصر والظروف. ففي إيطاليا الفاشستية، وألمانيا النازية، فقدت المرأة كثيراً من حرياتها، ويحظر عليها التبذل والتهتك في الأزياء؛ وفي إيطاليا تلتزم بالآبى بقل ثوبها عن طول معين؛ وفي ألمانيا وإيطاليا يحظر اليوم كثير من ضروب اللوح الخليج، وتمنع الحانات الليلية والملاهي المارية. ولا ريب أن الفكرة التي أملت على الحاكم خطته، وتعلل اليوم على ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشستية خطتها نحو المرأة، ترجع في جوهرها إلى أصل واحد، هو مكافحة عوامل الغواية والفساد التي يبشّتها تنكس المجتمع النسوي وإمعانه في صنوف الاستهتار والجلالة

وأما تحريم بعض أنواع الأاطمة فقد يرجع إلى أسباب صحية لها قيمتها في ذلك العصر، وأما تحريم ذبح الأبقار السليمة فهو إجراء ظاهر الحكمة وهو المحافظة على النسل. وأما قتل الكلاب فهو نحو سحى لا يزال يتبع في عصرنا في جميع الأمم المتقدمة ولنا ندعى أننا نستطيع أن نملل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته أو أن ننفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعاً، فهناك كثير منها مما لا يستطيع فهمه وتعليله؛ ولكن الذي نود أن نقوله هو أن هذه القوانين والاجراءات، كانت عكس ما تصورنا الرواية

التكوين الديني المضطرب، وفي هذا التردد بين الشدة واللين؟ وما يلاحظ في هذا الصدد أن موقف الحاكم إزاء التصارى واليهود هو من المواقف القليلة التي ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة، وأنه لم يجنح فيه من الشدة إلى اللين إلا في أواخر عصره حينما ظهر الدعاة السريون يدعون إلى دين جديد وعقائد جديدة وقوانين الحاكم الاجتماعية؟ هل كانت تشريماً جنونياً خالياً من كل باعث وحكمة؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضى أن نفهم روح العصر وخواص المجتمع المصرى يومئذ؛ كان الحاكم بأمر الله على رأس خلافة مذهبية يقوم سلطانها السياسى على صفة الامامة الدينية؛ وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها في مصر بسياس قوى من الخلال القوية التي أحاطت ملكها في المغرب؛ ولكنها ألفت في مصر مجتمعات متحضراً يميل إلى الترف والحياة الناعمة؛ ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادي بدء، لأنها كانت تخطب وده وتسى إلى تأليفه؛ ولهذا كانت تساربه، وتفريه يذخها وبهاؤها، وتطلق له أعنة البهجة والمرح، وتمفره بالمواضع الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة؛ فكانت تدرك بذلك مزاجه وخفته واستهتاره بدلاً من أن تدرك فيه الخلال القوية التي تتشدها. وكانت عوامل الانحلال تجتم في قرارة هذا المجتمع الذى يخفى انحلاله تحت أبواب من الفخامة والبهجة؛ وكانت الرذائل الاجتماعية على أشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله، وظهر ذلك الانحلال الاجتماعى في أشد مظاهره حينما نظمت حياة الليل، وشهد الأمير في مواكبه الليلية مظاهر هذا الفساد الشامل. عندئذ عمد الحاكم إلى وضع هذه الخطة التي يمكن أن توصف بحق بأنها برنامج للإصلاح الاجتماعى، ولجأ إلى تلك القوانين والاجراءات الصارمة كوسيلة لمكافحة هذا الفساد الاجتماعى الشامل؛ وفيه تحريم الخمر ومطاردة المدمنين، وتحريم الفناء وهو الخليج إلا أن يكون لتقوم أخلاق الشعب، وحماية أمواله وحمته من الاسراف والعبث، وحماية المجتمع من ضروب الفساد التي يفرق فيها؟ إن الأمم العظيمة في عصرنا تلتجأ في أحيان كثيرة إلى إصدار مثل هذه القوانين لبث الإصلاح الاجتماعى؛ وما عهد التحريم الأمريكى يبيد؛ فقد حرمت الخمر في أمريكا مدى أعوام، وكانت تجربة اجتماعية هائلة لا تزال ذا كراهة ماثلة في الأذهان؛ وما تزال بعض الدول تحرم بعض الملاهي التي تراها خطراً على الأخلاق العامة؛

# سقراط والعالم الاسلامي

للدكتور ابراهيم بيومي مدكور

في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد لهجت السنة الأثينيين باسم حكيم لا كالحكام ، وفيلسوف لا كالفلاسفة . لا يتفق شكله وزيه مع جلال الحكمة ، ولا يتلاءم أصله ونسبه مع عظمة الفلسفة . فقد كان أفطس الأنف ، حرس الشعر في غير انتظام ، حافي القدمين ، حاسر الرأس ، مرتدياً كساء غليظاً . أبوه نقاش وأمه قابلة : مهنتان ليس لهما من الشرف نصيب كبير<sup>(١)</sup> وهو مع هذا يناقض أهل أثينا ، وبين خطاهم ، ويسفه أحلامهم ، دون أن يدعى الاثيان بمجديد ، أو تعليم الناس ما لم يعرفوه . أجل لم يك هذا الفيلسوف رئيس مدرسة يجتمع فيها الطلاب ، ولا صاحب نظرية محدودة يتدارسها الأتباع والتلاميذ . بل كان يبعث حكته في الأسواق والطرقات ، ويلقى درسه أمام الحوانيت وفي ملبس الشبان . وما كان هذا الدرس وتلك الحكمة إلا لإعلانه دائماً أنه لا يعرف شيئاً ، وترديده لهذه الجملة المأثورة : « اعرف نفسك بنفسك »<sup>(٢)</sup> . ذلكم الحكيم الغريب شكله ، القبيح منظره ، الشاذة تعاليمه وطريقته ، هو سقراط الذي نهج بالفلسفة منهجاً جديداً ، وكان على رأس طوائف فلسفية متعددة ومتباينة<sup>(٣)</sup> بين فلاسفة الأغريق ثلاثة أسماء لا يكاد الانسان يذكر واحداً منها إلا وحضر بذهنه الآخرون . ومن ذا الذي يلفظ اسم أفلاطون دون أن يخطر بباله أنه كان تلميذاً لسقراط وأستاذاً لأرسطو ؟ أو من ذا الذي يتكلم عن سقراط ولا يلحظ تلميذه أفلاطون وتلميذ تلميذه أرسطو ؟ وفي الحق إن هؤلاء الحكماء الثلاثة يكمل بعضهم بعضاً : تضافروا على تكوين نظرية مشتركة نشأت بين يدي الأول ، وترعرعت لدى الثاني ، وأخذت شكلها الكامل عند الأخير . فكلهم أنزل الفلسفة من السماء الى الأرض وعنى بالانسان في تفكيره وسلوكه أكثر من عنايته بالشؤون

الاسلامية بأنها نزات طاغية مضطرب الذهن ، تكون في مجموعها برنامجاً إصلاحياً شاملاً ، وترى في مجموعها إلى تحقيق غايات لا ريب في حكمتها وسموها

يقول العلامة دوزي : « لم تكن قوانين الحاكم سخيفة كما يجب أن يصورها الرواة السنيون الذين اعتادوا أن يقدموا الينا من هذا الأمير شخصية مضحكة لاصورة حقة » ثم يقول : « ولقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل الذي سرى إلى مجتمع عصره بقوانين بوليسية صارمة ، وأحياناً غريبة شاذة » ثم يشرح رأيه بمد ذلك على ضوء هذه القوانين والأحكام المختلفة ، ويحدثنا بهطف عن تواضع الحاكم وتشفه<sup>(١)</sup> ويقول ميلر بمد أن يلخص قوانين الحاكم الاجتماعية ، « إن هذه التصرفات ليست كلها نم عن الحماقة ؛ وإذا كنا لا نستطيع أن نطلل كل أعماله ، فليس ذلك مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد ، ولا سبياً ونحن نراها في نواحي أخرى سليمة معقولة . وكل ما وصلنا من الروايات إنما هو وقائع مجردة ، مشوهة ومبالغ فيها بلا ريب ؛ وإنه ليكون من الدهش اليوم أن نستطيع أن نحمل رموز هذه المعضلة الشاملة » ثم يقول : « وليس لدينا إلا أن نعتقد أنه إما باطني متمصب ، توم في نفسه الاغراق والالوهية ، وإما أمير ذكي بارع في تاريخ أسرته ومذهبا ، واعتقد انه يستطيع أن يسمو فوق البشر وأن يحترقهم ويصنقهم كالشمع طوع إرادته . وربما كان يجمع في طبيعته المتناقضة بين شي من هذا وشي من ذاك . وربما لا يستطيع أن يظفر بالحقيقة هنا سوى خيال شاعر »<sup>(٢)</sup>

والخلاصة أن الحاكم بأمر الله لم يكن تلك الشخصية الوضيعة الساذجة ، ولاتلك العقلية المحرفة التي تقدمها الينا الرواية ؛ ولم تكن أعماله وأحكامه ، كما صورت على كرم المصور ، منزهة من النزعات والأهواء الجنونية ؛ إنما كان الحاكم لفر عصره ، وكان ذهناً بعيد النور ، وافر الابتكار ؛ وكان عقلية تسمو على مجتمعها وتتقدم عصرها بمراحل . وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ في التاريخ مكانها الحق

محمد هببر الله عناه

الحامى

تم البعث

النقل ممنوع

(١) Bréhier, *Histoire de la philosophie*, I, 89 — 60.

(٢) Rivaud, *Les grands courants de la pensée antique*,

72 — 73.

(٣) Bréhier, *op. cit.*, I, 89.

(١) Dozy : *Essai sur l'islamisme* P. 287 & 288

(٢) Müller; *ibid*; P. 630